

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الدكتور محمد بن قاسم ناصر بوحجام

حياة العظماء، وسيرة الزعماء، وجهاد الكبراء... معين يستقي منه الناشئون ما ينعش أرواحهم، ويبني نفوسهم. ومصدر للشباب الصاعد الواعد، يلتمس فيه ما يبعث الثقة في إمكاناته ومؤهلاته، ليستثمرها في خدمة الصالح العام. ومرجع يأخذ منه العاملون ما يفيدهم في تسديد خطاهم، وترشيد نشاطهم. وموئل يلجأ إليه المترددون لتحديد معالم تحركهم، وتمهيد سبل عملهم. ومصدر يقصده الدائبون في تقنين نشاطهم على الأسس الصحيحة، المنطلقة من المبادئ، والمشدودة إلى الأهداف، التي حددها للمسلمين الآية الكريمة: (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق لكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (الأنعام/153)

هي دليل للباحث عن مقومات العمل المؤسس، وسبيل للراغب في اكتساب مهارات في الدأب المنتج المثمر. وخميل لمن يرجو ويبغي التنوع في طرق العمل والتحرك، وفسيل لمن يطمح في استمداد القوة والأصالة في دأبه وسلوكه...

في حياة الشيخ إبراهيم بن عيسى أبي اليقظان كثير من هذه المكاسب والفوائد. فالشيخ عاش للعمل الدؤوب، والطموح غير المحدود، عاش للأصالة يحافظ عليها ويحميها ويدعو إليها، عاش للأخلاق والحلال يبشّر بها، ويرشد إليها، ويدرب عليها. عاش للدهر يعجم عوده، ويحلب أشطره، عاش للخطوب يصكّها بالصبر والجلد، ويقهرها بالتحمّل وعدم الاكتراث بها. عاش لغيره، يذوب كالشمعة ليستضيء، عاش للمصلحة العامة، يضحي بمصلحته الخاصة من أجلها، عاش للأهداف النبيلة، يسعى لتحقيقها. عاش للناشئة يربّيها وينمّيها. عاش للشباب يعدّه ويكوّنه. عاش للمجتمع يرشده ويوجّهه.

عاش يحارب الذلّ والصغار، عاش يقاوم الجبن والوهن، عاش يناهض التعسّف والقهر، عاش يجاهد بالكلمة المسؤولة، عاش للفكر الأصيل ينثره، عاش للتكوين الصحيح ينشره، عاش للألم يزحف إليه، ويسير نحوه، دون وجل وتردد، يستسيغه ويستثمره لإنجاز أجلّ الأعمال، وأجمل البطولات، وأجلى الأبحاث، يعصره الألم فيجد فيه تحقيق أمله، يستفزّه فيجد فيه الرجل العنيد، يضغط عليه فيلقى فيه الشخص العميد، يُغير عليه، فيجاهمه بالعزم العتيد. كان الألم في مسيرة الشيخ

سبب التبوغ والإنتاج الغزير. قال الدكتور عبد الرزاق قسوم، وهو يقدم للقراء الشيخ أبا اليقظان: "...خرج بعض النقاد ذات يوم بفكرة في منتهى الغرابة، وهي تمنّي الشقاء لذوي المواهب الفكرية، حتى يكون ذلك الشقاء مدعاةً لخصوبة الإنتاج، فتستفيد الإنسانية من ذلك، وكأنّ الإنسانية طبقاً لوجهة نظر النقاد هؤلاء، ستتضاعف استفادتها متى وجد الحافز، المتمثل في الألم لدى المفكرين والأدباء. ومن هذه الفئة القليلة المتمردة على هذه الحن، يبرز إنسان جزائري، تعددت جوانب العظمة في شخصيته، ذلك هو الشاعر والصّحفي والمصلح الجزائري أبو اليقظان." (1)

كتب عن الألم كثيراً، وحيًا من غالب الألم وقاومه، ففي أشعاره نجد مثلاً هذه العناوين: "السّجن مجمرة تفوح بها قيم الرّجال" (2) قالها الشيخ أبو اليقظان في الشّيخين: صالح بن يحيى، ومحمّد الرّياحي بعد خروجهما من السّجن، يوم 10 من ربيع الآخر 1336هـ. "جسر المجد والعظمة" (3) قالها الشيخ إثر خروج الشيخ عبد العزيز الثّعالبي من السّجن يوم 16 من رمضان 1339م. ومن مقالاته في هذا المجال: "الألم يحرّك العزائم" (4)

عاش يدعو إلى الإقدام والإسراع إلى التّضحية والبدار والثّفار، وأخذ الحقوق بالمغالبة، ونيل المطالب بالمشافهة، وعدم الاستسلام للألم، وعدم الرّكون والرّضوخ للمصاعب والمتاعب، قال مخاطباً السّاعين والسّارين في درب النّضال والكفاح من أجل التّحرّر من كلّ عبودية واستبداد:

ابنِ صرَحَ المجد عن أسّ الضّحايا	وأشدّ عرش العلاء رغم البلايا
حَضَّ غمار الهول غوصاً، إنّما	لؤلؤ التّيجان في بحر المنايا
إنّ في الموت لطلاب العـلا	لحياة، لا حياة أهل الدّنايا
إنّما الدّنيا جهادٌ، من يَنـم	يومه، داسته أقدام الرّزايا
ولنيل الحقّ أدوارٌ، غـدّت	خطوات، جازها كلّ البرايا

1 - محمّد ناصر بوحمام، أبو اليقظان في الدّوريات العربية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1985م، ص: 27. المقال بعنوان: "أبو اليقظان أحد رواد الإصلاح في الجزائر". نشر في مجلّة الأصالة (وزارة التّعليم الأصلي والشؤون الدّينية، الجزائر)، السّنة الأولى، العدد الخامس، شوال 1391هـ / نوفمبر 1971م.

2 - أبو اليقظان، الدّيون، الجزء الأوّل، ط2، نشر جمعية التّراث، العطف، غرداية، الجزائر، 1989م، ص: 99 - 101. نشرت القصيدة في جريدة المنير التّونسية، ع: 24.

3 - المصدر السّابق، ص: 101 - 103. نشرت القصيدة في جريدة المنير.

4 - جريدة وادي ميزاب (أبو اليقظان)، ع: 62 (23 / 12 / 1927).

فَأَيْنِ، فِكْلَامِ، فَصِيحًا	فَخِصَامِ، فَجَلَادٌ، فَسْرَائِيَا
وَتَبَاتٌ لِلْمَعَالِي، وَتَبَاتَات	لِلْعَوَالِي، وَخِصَالٌ وَمَزَايَا
لَيْسَ حَكْمُ التَّفْيِ وَالسَّجْنِ، وَلَا	الْحَكْمُ بِالشَّنَقِ لَهُ إِلَّا مَطَايَا
أَيِّ شَعْبٍ نَالَ مَا نَالَ، إِذَا	لَمْ يَقْدَمْ سَلْفًا تِلْكَ الْهُدَايَا
أَيِّ شَعْبٍ نَالَ حَرِيَّتِيهِ	وَهُوَ لَمْ يَطَّلِعْ لَهَا تِلْكَ الثَّنَائِيَا (5)

عاش للأمة الإسلامية، يكشف أدواءها، ويصف لها الدواء، وينبه إلى غفلتها، ويدعوها إلى اليقظة والنهوض، ويوقفها على كبواتها، ويساعدها على القيام. عاش يسوق الأمة إلى الصّلاح والإصلاح، وقال: "...ولكن لم تزل الأمة في شغل شاغل عن هذا كله، الجاهل في جهله، والمنافق في نفاقه، والمفسد في فساده، والفاسق في تهتكه، وانهماكه، بل لم نرَ للجهل إلا إمعاناً وتمكّناً، ولا للفساد إلا شيوعاً وذيوعاً، ولا للإلحاد والزندقة إلا تسرباً وتغلغلاً، ولا للتهتك والانهماك إلا فشواً وانتشاراً. كأن ما يبذله المصلحون مواد مفرقة، تزيد الحريق التهاباً، والعمران خراباً. ولا غرو في ذلك فإزاء تلك القوّة الإصلاحية الضئيلة حركة أخرى، لها، راسخة الأصول، متشعبة الفروع، تغذيها وتمدها قوّة أخرى، وسواعد مختلفة، لا يمكن التغلّب عليها إلا بتوحيد الجهود، وجمع ما تشتت من القوى، وما تبدّد من المواهب. ولن يتسنى هذا والمصلحون قليل، وهم أنفسهم تنقصهم الكفاءة والمران.

إنّ معالجة أدواء الأمة لا تكون إلاّ باكتساح تلك الأصول المبيدة: الجهل، الفقر، الافتراق. وغرس بذور الحياة فيها: العلم، الثراء، الاتحاد. ولن يحصل شيء من هذا بالأمني والأحلام، أو بمجرد القول وفوار الفم، ولكنّه يحصل بتوجيه العزائم، وتحريك الهمم وصدق الطّلب، والإخلاص والصّبر والثّبات... (6)

من أجل ذلك كانت حياته كلّها دروساً وعبراً، يُمتّاح منها في معركة التّحدّي والتّصدّي، يستنجد بها في ردّ التّعدّي، تُستلهم في زمن الرّداء والرّدة والتّردّي، تستنطق لتصحیح المسار، تستثمر لتغيير ما يحدث في الدّار. إنّ الجهات التي تحارب الأصالة أصبحت كثيرة، من الدّاخل والخارج، والجهات التي يجب التّصدّي لها أضحت عديدة، والوسائل التي بها يتمّ العمل، ينبغي أن

5 - ديوا أبي اليقظان، الجزء الأوّل، ص: 125.

6 - أبو اليقظان، " شعور الأمة نائم، فماذا ينبّه؟"، وادي ميزاب، ع: 42 (19 / 07 / 1927 م).

تكون ناجعة، يراعى فيها القوّة والحكمة والتّناغم، ونفاذ البصيرة، وحسن الاختيار، وفهم الخصم، وإدراك حجم المؤامرات، وتقدير طبيعة المعركة، ومعرفة حقيقة العمل المنتظر... كلّ ذلك يمكن أن نفيده من طبيعة عمل الشّيخ أبي اليقظان - رحمه الله - إذا أحسنّا قراءة سيرته، وعرفنا كيف نفهمها، وحذقنا كيف نستلهمها.

رسالة الشّيخ أبي اليقظان في الوجود، حدّدها هو بنفسه وهو يخاطب الأستاذ الزبير سيف الإسلام: "أخي، إنّ رسالتي إنسانية، لا يقطنانية ولا مذهبية، أنا إذا كتبت أوعظت، إنّما أوجّه نصائحي ووعظي وإرشادي إلى كلّ المسلمين. فإنّه يعلم الله كم يكون فرحي شديداً برجوع المساميين إلى جادة الحقّ والإسلام، فكلّ فردٍ كنت أنا السّبب في إنقاذه من النّار، كم يلحطني من فرح وسرور وبهجة، وكم يكون سروري عندما يسلم فرد من أفراد المسلمين من أن يحشروا في عرض النّار." (7)

إنّ الشّيخ أبا اليقظان يخاطب أبناء الأمة الإسلامية في عشرينيات القرن العشرين، ويعرض حالها في تلك الحقبة، ألا يمكن أن نعدّ هذا خطاباً لنا نحن رجال القرن الواحد العشرين؟ ألا يكون هذا العرض هو ما نعيشه ونلقاه اليوم؟ فإنّ حالنا لا تختلف عمّا وصف، ووضعنا لا يقلّ سوءاً عن ذلك الوضع، أفلا يجدر بنا أن نأخذ توجيهه محمل الجدّ، ونداءه بعين الاعتبار، فنقوم بواجبنا كما يريد ويدعو؟! فيكون لنا في سيرته وحياته ملهم ومرشد وموعظ...

لهذا كان يرى نفسه مسؤولاً عن رعيّته، وهم المسلمون كافّة، الواجب يفرض عليه أن يقوم برسالته الدّينية نحوهم، وهو ما يجب على كلّ مسلم القيام به في هذه الدّنيا: يقول الشّيخ "أخي تصوّر أنّ لرجل غنماً، كان حريصاً عليها، يصونها من الجوائح كالذّبب والريّح والمطر والعطش ونحو ذلك، وفي ذات يوم هرولت من قفصها هائمة في طريق منحدر إلى هوّة سحيقة، فأخذت تنقلب أكداساً وأشتاتاً في هوّة سحيقة، لا قعر لها (في جهنّم)، فكيف يكون صاحب الغنم؟ أفلا يجنّ جنونه؟

7 - أبو اليقظان في الدّوريات العربية، ص: 124، 125. من مقال للزبير سيف الإسلام، عنوانه: "آخر حديث لعميد الصّحافيين المرحوم أبي اليقظان عن التاريخ التّضالي للصحافة الوطنية" نشر في مجلّة الأصالة، (وزارة التّعليم الأصلي والشؤون الدّينية، الجزائر)، السّنة الثالثة، العدد: الرّابع عشر والخامس عشر، ربيع الثّاني، جمادى الأولى، جمادى الثّانية، رجب 1393هـ/ ماي، جوان، جويلية، أوت 1993م.

أنا صاحب الغنم، والغنم هم المسلمون، فكيف يكون حالي معهم، وأنا أرى مصائرهم أمام عيني؟ فهديني كُله موجّهة إلى صيانة الغنم من الذئب، شياطين الإنس والجن. فكلّ ما تحمّلت من اضطهاد وتضحية هو في هذا السبيل. " (8)

ألسنا نعيش اليوم الوضع نفسه، فنحن نعاني من الرياح والأمطار والذئب، التي ليست سوى الغزو الفكري، والقهر الأجنبي، والتدخل السافر في خصوصياتنا، والعمد إلى سلبنا مقوماتنا وأصالتنا، بما يدبر لنا من الدّاخل والخارج، بواسطة البرامج المسطّرة، والمناهج المزيّفة، والمخطّطات الموجهة إلى غير وجهتنا الصّحيحة. ألا نشكو عطشاً إلى مبادئنا، وظماً إلى أصولنا؟ ألا نشتكى من قحط في مناهجنا، وفراغ أو خواء في مضامينها؟ ألا نعاني أزمة في فهم هويّتنا؟

أفلا يكون لنا في توجيه شيخنا أبي اليقظان، وفي عمله حافر لنحذو حذوه، ونسير سيره في صيانة غنمنا من الجوائح، وسطو الأعادي؟؟ ألا تضحّي كما ضحّي؟ ونفدي رعايانا كما كان يفعل؟ ألا نقدّر مسؤوليتنا كما كان يقدرها؟؟؟

خاض وغاص، وجمال وصال في ميادين متعدّدة، في مجال الشّعْر والنّثر، الفقه والتّاريخ، في الاجتماع والتّربية... إلّا أنّ المضمّار الذي كافح فيه وناضل وجاهد، وقارع ونازع ودافع، وأبدع وأمتع وأينع، وأفضّ به المضاجع، وأوجد المواجع، وسبّب الفواجع، وحرّك الضّمائر، ونشّط الفواتر، وهزّ المناير، ونشر فيه الفكر، وحارب به الكفر، وردّ عن قومه القهر...فجاوز بذلك الدّرى، وجاور الثّريا والسّهّا، وحاور المجد والسّنن. إنّهُ ميدان الصّحافة، التي كان يرى فيها روحه وحياة الأمّة، كما قال:

والشّعب من غير اللّسان موات	إنّ الصّحافة للشّعب حياة
ببيانه تتدارك الغايات	فهي اللّسان المفصّخ الذّلق الذي
وإلى الفضائل والعلا مرقاة	فهي الوسيلة للسّعادة والهنّا
إن ساعدت لرواجها الأوقات	ما ذو الجحاز، وما عكاظ وما وما
لحياته ما لا تراه رعاة (9)	الشّعب طفلاً، وهي والده، يرى

8 - المصدر السّابق، ص: 124.

9 - ديوان أبي اليقظان، الجزء الأوّل، ص: 130، 131.

كما كتب عدّة مقالات، يشيد فيها بالصّحافة، ويعالج مسائلها، وينشر أفكاراً عنها، نشير إلى بعضها، ممّا نشره في جرائده. ففي جريدته " وادي ميزاب " نجد العناوين الآتية: " نشوة الصّحافة في العالم " (العدد الأوّل)، " تأثير الصّحافة في العالم " (ع:3)، " الصّحافة والعلم " (ع:5)، " الصّحافة والدين " (ع:6)، " الاستخفاف بحقّ الجرائد " (ع:31)، " أكبر دار للصّحافة في أوروبا " (ع:52)، " شقاء الصّحفي، إذا.. وإذا.. " (جريدة المغرب، ع:24)، " ماذا يجب أن نسلكه بصحافتنا العربية في وادي ميزاب " (النور، ع:72)، " كيف يجب أن تكون العلاقة بين الجريدة الصّادقة وبين الجمهور " (الأمة، ع:45)

يقول الدّكتور محمد ناصر : " أجل إنّ أبا اليقظان الذي آمن برسائله الإصلاحية، لم يأس قطّ، ولم يحنّ ظهره للمحن، والتّفوس العظيمة لا يرهقها الصّعود، مهما تكن الطّريق وعرة، لقد بات من الواضح إذاً بأنّه كان يهدف منذ التّخطيط المبدئي إلى اتّخاذ الصّحافة العربية أداة لإيقاظ الأمة الجزائرية بخاصّة، والإسلامية بعامة، يمدّ بصره إلى كلّ أفق، ويعالج بقلمه كلّ المشاكل: ديناً واجتماعاً وثقافة وسياسة واقتصاداً. ومن هنا فهو يعتقد بأنّه لا وجود لحياة كاملة للأمة، بدون صحافة رائدة مؤمنة. " (10)

مزيداً من البحث في هذا المجال، والكشف عن أعماق ما قام به الشّيخ أبو اليقظان فيه، يضاف إلى جهود السّابقين، أشرفت جمعية الحياة لمدينة القرارة بتنظيم أيام ثقافية بمسقط رأس المحتفى به بالقرارة؛ لتكشف فيها عن النّضال الصّحفي لهذه الشّخصية الكبيرة، التي تعدّ رائدة الصّحافة العربية الجزائرية، قامت بهذه النّدوة بالتّسيق مع هيئات وجمعيات من البلدة يومي الخميس والجمعة: 24 و25 من محرّم 1424هـ / 27 و28 من مارس 2003م. هذا المهرجان أقيم إحياء للذّكرى الثّلاثين لوفاة عميد الصّحافيين الجزائريين الشّيخ إبراهيم بن عيسى أبي اليقظان. قبل ذلك بعشر سنوات أحييت جمعية أنغام الحياة لمدينة القرارة ذكرى وفاة الشّيخ العشرين سنة 1413هـ / 1993م.

اشتمل المهرجان على محاضرات، ومعارض، تناولت عرضاً لحياته ونضاله التّعليمي والصّحفي والسّياسي، وعرض مجموعة مؤلّفاته المطبوعة والمخطوطة، وصحفه الثّماني، وصوراً

10 - أبو اليقظان في الدّوريات العربية، ص: 130. من مقال عنوانه: " الشّيخ أبو اليقظان ونضال الكلمة"، نشر في مجلّة الثّقافة، (وزارة الثّقافة، الجزائر)، السّنة الرّابعة، عدد: 21، جمادى الأولى، حكاى الثانية 1394هـ / جوان، جويلية 1994م.

فوتوغرافية، تقدّم بيانات وتوضيحات عن حياة الشّيخ أبي اليقظان، وزين العرض وثنّنه عرض الطّابعة اليدوية، التي كان يستخدمها الشّيخ في طبع صحفه، وبعض الكتب. وهي تشهد على الجهد والصبر اللذين كان يديهما الشّيخ في أثناء عمله المضني المرهق.

أمّا المحاضرات فقد ركّزت على ميدان الصّحافة، وحاولت أن تلمّ بكثير من جوانب الموضوع؛ لتبرز طبيعة العمل الذي كان يقوم به الشّيخ في جهاده بهذا الوسيلة المهمّة، وحقائق الأهداف التي كان يطمح إلى تحقيقها بها.

كانت فاتحة الكلمات، وواسطة عقدها كلمة شيخنا المرحوم، أبينا الشّيخ سعيد بن الحاج شريفي (الشّيخ عدّون)، فباسم جمعية الحياة (وهو رئيسها): حمد الله وأثنى عليه بإقامة هذا الملتقى، ثمّ رحّب بالضّيوف الكرام، وشكر سعيهم، واعتذر عن عجزه وكبر سنّه، عن تقديم شيء يليق بمقام الشّيخ أبي اليقظان. مع ذلك حاول إبراز جوانب من شخصيته، وعلاقته به، وتحدّث عن إصلاحه في مجال التّعليم، وعدّه رائدا للتّعليم العصري في الجزائر، ونوّه بدوره الكبير في ميدان الصّحافة، وبإظهار موقف الميزابيين من الاستعمار، وكشف دسائسه. وثنّن جهوده في تنوير العقول، ودعم الحركة الإصلاحية.

قدّمت في الملتقى عدّة كلمات من عدّة شخصيات، تمثّل أبناء الشّيخ أبي اليقظان، وتلاميذه الذين تكوّنوا على فكره، ومسؤولين اجتماعيين وتربويين وسياسيين... وألقيت قصائد شعرية. كانت كلّها تقديراً للمجهودات المبذولة لإقامة هذا الملتقى الكبير، وإشادة وإبرازاً لشخصية المحتفى به، ودعوة إلى نشر فكرها، والاستفادة منها في تنوير العقول، وتوعية النفوس، وتربية النّشء، وإصلاح الأوضاع...

أمّا المحاضرات فكانت فاتحتها ما قدّمه أستاذنا، الذي له الفضل الكبير في التّعريف بشخصيّة الشّيخ أبي اليقظان للنّاشئة والدّارسين، وعمامة النّاس؛ بما قدّمه من دراسات وندوات حوله، وقراءات لفكره ومواقفه. إنّه الدّكتور محمّد بن صالح ناصر. فهذه المحاضرة هي جزء ممّا قام ويقوم به في هذا السّبيل، حيث استهلّ محاضرتَه بقوله: إنّ الحديث عن الشّيخ أبي اليقظان ليس الهدف منه تأريخ هذه الشّخصية فحسب، بل تأريخ أمة بأكملها في جميع مجالاتها. وممّا ركّز عليه الدّكتور محمّد ناصر سرد الجهود التي كان يبذلها الشّيخ أبو اليقظان في إصدار جرائده، والصّعوبات التي كان يلاقيها في عمله، وتحملّه وصبره وتجلّده في هذا المضمار. عرض - أيضاً - العلاقات الروحية القويّة، التي

ربطته بإخوانه العلماء والمثقفين، في المشرق والمغرب. كما أشار إلى الأهداف التي كان الشيخ أبو اليقظان يرمي إلى تحقيقها من خلال جهاده الصحافي، وهي لم تخرج عن مجالات التربية والإصلاح وتوحيد الصفوف والكلمة ومواجهة الاستعمار...

زكى هذه الشهادة الشيخ محمد بن إبراهيم سعيد (كعباش) في كلمة ألقاها بعد المحاضرة، تحدت فيها عن جهود الشيخ أبي اليقظان في المجال الصحافي، في وقت عز فيه الحرف العربي، الذي أبدى فيه مصابرة على المشقة والعنت اللذين لاقاهما بسبب نضاله. ذكر أن هذا يعود إلى تعلقه الشديد بالصحافة؛ إذ قدم في هذا السبيل كل ما يملك من غال ونفيس. وأشار إلى أن الشيخ أبا اليقظان كان في صميم الحركة الوطنية، إن في الجزائر، إن في تونس، نشطاً في الحزب الدستوري، وذلك لحرارة الإيمان الذي يتدفق في روحه وقلبه، مما جعله لا يكثر بالمصاعب والعوائق والحرب النفسية.

مع أن نصفه شل فإنه لم يتوقف عن العمل والجهاد بما أبقى له ربه من نعمتي البصر واليد، فقد كان يحمد الله تعالى، الذي أنعم عليه بذلك، إذ أبقى له يداً يكتب بها، وعيناً تبصر، وكان يقول: "إن ربي لطيف لما يشاء".

قدم الأستاذ الحاج موسى بن بكير، ابن عمر محاضرة بعنوان: "تاريخ الجزائر من خلال صحف أبي اليقظان". تناول النقط الآتية: إشكالية كتابة تاريخ الجزائر، ظروف ظهور صحف أبي اليقظان. تحليل محتويات جرائد الشيخ أبي اليقظان. مميزات كتابات الشيخ أبي اليقظان، التي منها الصدق والصراحة... ذكر أن لصحفه اتجاهات، منها ما يهتم بالوقائع الآنية، ومنها ما هو إعلامي توجيهي، يعرض فيه آراءه الفقهية والسياسية والقانونية، ومنها ما هو تاريخي، يتناول فيه تحقيقات حول مناطق ومدن تاريخية، وتراجم وسير شخصيات بارزة...

شارك الدكتور محمد زغينة بمحاضرة، عنوانها: "محطات فكرية في صحافة أبي اليقظان". من بين ما تناوله الأستاذ في محاضراته: ما عرضه الشيخ أبو اليقظان في صحافته من عقد مقارنات بين المجتمعات الجاهلة التي تسير وراء المشعوذين والمفسدين، الذين حاربهم الشيخ من دون هوادة، والمجتمعات التي ينتشر فيها العلماء والمصلحون. وقد أبلى الشيخ أبو اليقظان بلاء حسناً في هذا السبيل، وذاب كالشمعة لينير الدروب للناس؛ حتى يستقيموا في سيرهم، ويتعدوا عن طريق الضالين المضلين.

أشار أيضاً إلى الأساليب التي استعملها المستعمر في القهر والبطش، وكيف فضحها الشيخ، التي منها: أن إخفاق الفكرة يؤدّي إلى إخفاق رموزها، ومن ثمّ يتمّ عزل المكافح والمصلح عن ميدانه وعن العامّة، فتصبح الأمة قابلة للباطل، ساكنة عن الحقّ، وهو ما تناوله مالك بن النّبّي في كتاباته.

أسهم الدكتور محمد بن عمر لعساكر بمحاضرة، عنوانها: " الشيخ أبو اليقظان والحركة الوطنية في تونس والبعثة العلمية بها" تحدّث المحاضر عن ظروف إنشاء البعثة العلمية إلى تونس، ثمّ إسهام الميزابيين في الحركة الإصلاحية والوطنية؛ بإنشاء مدارس عصرية في مدن شمال الجزائر، حيث يتمركز الميزابيون للتجارة.

في المجال السياسي أشار المحاضر إلى مشاركة الشيخ أبي اليقظان في الحركة السياسية في تونس؛ بانضمامه إلى الحزب الدستوري؛ بل كان له الفضل في المشاركة في تأسيسه، وقد عين عضواً في اللجنة التنفيذية والمالية، كما سعى إلى ربط أعضاء البعثة العلمية بحركة الحزب.

المحاضرة الموالية كانت من نصيب الأستاذ إبراهيم بن باحرز، عنوانها: " الشيخ أبو اليقظان وجهاده في المطبعة ". استهلّ المحاضرة بذكر الدوافع لإنشاء المطبعة، فكان منها ما هو معنوي، وهو الإيمان القويّ بدور الصحافة في البناء الفكري والحضاري، ومحاربة الاستعمار، وكشف دسائسه. ومنها ما هو مادّي، وهو توفير وسيلة تُخفف من متاعبه في طبع جرائده؛ ذلك أنّ الشيخ أبا اليقظان كان يطبع جريدته الأولى بتونس ما بين 1926 و1929م، فبتوفير مطبعة بالجزائر يقلّل من كثير من المتاعب.

أمّا عن تسمية المطبعة، فقد أريد لها في البداية أن تسمّى بالمطبعة العصرية؛ لإضفاء الطابع التجاري عليها، إلاّ أنّ الشيخ أبا اليقظان أبي إلاّ أن يسمّيها " المطبعة العربية "؛ ليسبغ عليها طابعاً وطنياً وحضارياً.

من بين ما ذكره المحاضر: علاقة الشيخ أبي اليقظان بعمّال المطبعة، قال عنه: إنّهُ تميّز بعلاقته الحسنة معهم، والتّواضع وحسن العشرة، وكان يقوّي روح الألفة بينهم، بالدّعابة والمرح، وكان يقوم معهم بخرجات للتّرتّه والترويح عن النّفس.

من الناحية التقنية لجرائد الشيخ أبي اليقظان، أكد المحاضر أنها كانت تتميز بالإخراج الجيد والمسحة الفنية والطباعة الجيدة، مقارنة بغيرها من الصحف، رغم الظروف المالية العسيرة التي كان يعاني منها الشيخ أبو اليقظان.

مشاركة الدكتور مصطفى بن صالح باجو، كانت عن بُعد؛ إذ أرسل بمحاضرته من سلطنة عمان، فألقاها نيابة عنه الأستاذ صالح بن أحمد حدبون. عنوان المحاضرة: " صحافة أبي اليقظان في عين عبد الرحمن " خصصها للحديث عن رأي الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي في صحافة الشيخ أبي اليقظان.

بداية المحاضرة كانت لمحة عن حياة الشيخ أبي اليقظان الصحافية والجهادية في إعلاء كلمة الحق، ودحض الباطل والفساد. بعدها حلل الظروف السياسية والاقتصادية التي برزت فيها جرائده. ولم ينس بيان الأسباب التي دفعت به إلى اختيار ميدان الصحافة للنشاط والعمل، فقد كان ذلك نتيجة رؤية نافذة؛ لكونها الوسيلة الأنجع للإبلاغ والإصلاح، والمنبر الأوسع، والعصا القوية لضرب المستعمر. تطرق المحاضر - أيضًا - إلى العلاقة الوطيدة التي كانت بين الشيخين أبي اليقظان وعبد الرحمن بكلي، وكيف تجسدت في مجال الصحافة. من ما ورد في المحاضرة رسالة أرسل بها الشيخ عبد الرحمن إلى الشيخ أبي اليقظان في بيان دور الصحافة في الإصلاح.

ختام سلسلة المحاضرات محاضرة الدكتور محمد بن عيسى عيسى وموسى، عنوانها: " واجب العناية بالتراث، الشيخ أبو اليقظان نموذجًا ". قدّم الأستاذ بين يدي المحاضرة مجموعة من الأسئلة، منها: إن للشيخ أبي اليقظان تراثًا كبيرًا، ماذا فعلنا لاستغلاله؟ إنّه من الصعب على الباحث الوصول إلى هذا التراث. لذا فالمرجو حصر هذه الوثائق وتنظيمها.

ثم أخذ المحاضر في سرد مجموعة من العمليات التقنية لحفظ الوثائق، وتسهيل الوصول إلى المعلومة بطرق متعدّدة. وأنهى محاضرتَه بمقترح إنجاز متحف، يحفظ مختلف الإنتاج الفكري للشيخ أبي اليقظان.

بعد هذه المحاضرة قدّم كلمة الأسرة اليقظانية حفيد المحتفى به عبد الرحمن بن عيسى بن إبراهيم حمدي أبو اليقظان، ممّا جاء فيها: سرد للحياة الأسرية للشيخ أبي اليقظان، أشار فيها إلى اهتمام الشيخ الكبير بتلاوة القرآن الكريم، والعمل به، وتحفيز أبنائه على العمل والكتابة، وتسجيل الأحداث وحفظ الوثائق مهما تكن. وقال عبد الرحمن: وكان رحمه الله يحدث أبنائه عن الثورة

والوطنية وحبّ الوطن، كما كان يحبّهم في الطّبيعة، ويحرّضهم على القيام بالأعمال الفلاحية. رجا في نهاية كلمته أن تقام للشيخ أبي اليقظان ملتقيات أخرى داخل الوطن وخارجه؛ تتناول الجوانب المتعدّدة لشخصيته. ثمّ شكر باسم الأسرة جميع الهيئات المسهمة في إعداد هذا الملتقى وتنظيمه وإثرائه، وكذا الضّيوف وكلّ الحضور، والذين لم يتمكّنوا من الحضور، وبعثوا باعتذاراتهم ورسائلهم وبرقياتهم.

كان مسك الختام، كما كانت البداية كلمة من أينا المغفور له فضيلة الشيخ عدّون بن الحاج شريقي، شكر فيها الجميع، بخاصّة الذين تحمّلوا مشاقّ السفر، ورجا أن تتلوها ملتقيات أخرى، تتناول بالدراسة والبحث شخصيات فكرية وإصلاحية.

ما قدّم في الملتقى كان كبيراً، وما عرض كان جليلاً، الأجل من كلّ ذلك هو الكشف عن بعض الجوانب المخفية في حياة الشيخ أبي اليقظان؛ ممّا هي شهادات ورسائل مخطوطة، كانت - فقط - عند بعض الناس. وما ارتقى بهذا الملتقى إلى مستوى مقبول هو الإشكالات والأسئلة التي قدّمت فيه، منها ما فيه دفع للبحث في شخصية الشيخ أبي اليقظان إبراهيم، همّ وتحصّ الدارسين ليواصلوا عملهم، ويتحرّك من لا يزال متردّداً في العمل. ومنها ما يعنى أسرة الشيخ، لتقوم بواجبها نحو تراثه، وتفي وتؤدّي له الرّسالة التي كان من أجلها يضحّي، ويشقى ويتحمّل الأذى والمصاعب والمتاعب، فلا يمكن أن يبقى عمله سجيناً، ضنيناً به في الخزائن والرّفوف. ومنها ما هو موجّه إلى المجتمع، ليتحرّك وفق المقترحات المقدّمة لتحديث وسائل الإفادة من تراث الشيخ، وتوفير إمكانات العمل الجادّ المخطّط المنهج.

وقفنا الله للوفاء بالعهود، وإنجاز الوعود، وتحقيق المنشود، وكسر الحواجز والسّدود، لبذل المزيد من الجهود، في خدمة تراث الجدود، لإرضاء الرّبّ الغفور الودود، وجعل التاريخ علينا من خير الشّهود، وما ذلك على الله بعزیز، وما نحن في ذلك من أهل القُعود.

باتنة يوم الأحد: 05 من ذي القعدة 1427هـ

26 من نوفمبر 2006م

الدكتور محمّد بن قاسم ناصر بوحجام